فن التزيين القرآني المملوكي
"دراسة في مصادر الفن الإسلامي العالمية" – الجزء الأول

إعداد: أ. سمير كتاني

امتلك القرآن الكريم مكانة خاصة في الحضارة الإسلامية عامة، وفي المملوكية بشكل خاص، بوصفه كتاب الله العظيم. وتشهد على ذلك الأعمال الفنية الهائلة والرائعة في نسخ المصاحف، التي تعود إلى فترة حكم المماليك[1].

لقد تمت عمليات الترصيع والتزيين الأكثر جمالا وروعة في تاريخ الإسلام أيام حكم المماليك، حتى إنه لم يعرف عصر إسلامي آخر بمثل ما عرف به عصر المماليك من زخم حضاري في نسخ المصاحف، ومن ذائقة فنية نادرة في ترصيعها وتجليدها.

والأمر عائد إلى تطوير المماليك أسلوبا مميزا لهم في التعامل الفني مع النصوص الدينية، وبالذات المصاحف منها[2].

والحق أن الأسياد المماليك (أو الأساتذة)[3] أنموا مجموعة من الفنانين لتطوير خطة فنية غنية بالعناصر الترصيعية، ولإنتاج نماذج مختلفة من المخطوطات اليدوية المرصعة.

وتعكس المخطوطات اليدوية المملوكية أكثر الفترات التاريخية أهمية في تطوير صناعة فن المصاحف والنصوص الدينية الأخرى، فهي تعبر في الواقع عن انقلاب هائل في فنون التزيين والنسخ الإسلامية، وذلك في وقت تجلت في أهمية الوصاية (السيادة) المملوكية، التي لم تفتأ تشجع كل ما شابه أعمال الترصيع والنسخ هذه، لإيمانها بأن هذه الأعمال تخدم المسلمين عامة، وتقوي من شوكة المماليك الذين بحثوا عن كل شرعية تقوي حكمهم وتثبت حسن اضطلاعهم بالمسؤولية تجاه هذا الدين الحنيف.

معظم المصاحف التي تم نسخها وترصيعها بأمر الوصاية المملوكية العليا تم التبرع بها من السلاطين والأمراء إلى المساجد والمدارس الخاصة، وحفظت في بنايات خاصة حتى نهاية القرن التاسع عشر[4].

---

[1] J. du ry, art of Islam, p;156.

[2] Esin atil, Renaissance of Islam, p; 24.

[3] "الأستاذ" هو السيد الحامي لمجموعة من المماليك التابعين له.

[4] Esin atill, ibid.

والمعلـــوم أن الســـلاطين العثمـانيين وعمّـالهم نظـروا بـاحترام إلـى تـراث أسـلافهم المماليـــك، فحـــافظوا علـــى سجلاتهم وآثارهم بل ودافعـوا عن المباني الدينية التي حفظت هذا التراث، وعن كل ما تسجّل لجزء من الوقف الإسلامي، بما في ذلك المصاحف المملوكية[5].

إذن كانت "صناعة المصاحف" بمعنى إنتاج المصحف من نسخ وتجليـد وترصـيع خـلال الحكـم المملـوكي فـي غايـة الشـهرة والشـــعبية، وكـــان المجتمـــع ينسجم مع هذه الشـعبية حيـث يلاحظ إقبال الناس على العمل بـــالفنون كالنســـخ والترصـــيع وغيرها.

وكانـت المصـاحف فـي عهـد المماليـــك تكتـــب بـــالخط المملوكي[6].

ويمكننا تقسيم فترة الأعمال الفنية للمصاحف العثمانية إلـى فترتين ثانويتين :

1. الفترة البحرية (1250-1390م)[7]:

فـي هـذه الفتـرة، وخـلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر، يقـوم المماليـك بـالتبرع بالمصـــاحف لمؤسســـاتهم. ولـيس هنـاك أي نمـوذج فنـي يمكن نسبته إلى ما قبـل هـذه الفترة.

معظم المخطوطات القرآنيـة السـابقة صـنعت علـى شـكل ثلاثين مجلداً، و أصبح هذا الأمر ســـمة تميـــز المصـــاحف المملوكية. والمصاحف متعددة المجلـدات أنتجـت فـي إيـران أيضا في فترة حكم السلاجقة، في بداية القرن الحـادي عشـر المـيلادي. وهـذا التقسـيم - لثلاثين مجلدا – أصبح له شعبية وتأييـد كبيـران خـلال حكـم المماليك (وكانت كذلك ظاهرة القـرآن المنسـوخ علـى سـبعة مجلدات منتشرة)[8].

والمصـــاحف ذات الثلاثـــين مجلداً كانت منتشـرة فـي ظـل حكم "ناصر الدين محمد" وفي هذا المجال، عرف الفنان "ابن اسـحقي" بأنـه أول مـن نسـخ المصـحف بهـذا الشـكل وكـان أحد موظفي البلاط المملوكي.

لقد كـان تصـميم المصـاحف الأولـى متمـاثلاً وثابتـاً خـلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر، وكانت تنسخ فـي مجلـد واحد، أو في مجلـدين وأحيانـا في ثلاثة مجلدات.

والمخطوطـــات القرآنيـــة المملوكية تفتتح غالبا بصفحتين مـــزينتين بـــالألوان المختلفـــة، وتحويان الآيات الأولى القرآنية. والـنص القرآنـي يظهـر مزينـاً بأسماء السور المكتوبة بشكل

[5] Esin Atil Renaissance of Islam, P:24.

[6] Ibid.

[7] نسبة إلى المماليك البحرية.

[8] القرآن الذي نسخ على سبعة مجلـدات أنـتج سـنة 1304م ومنح لبيـبرس، وهـو موجـود في المكتبـة البريطانية.

بارز ولافت للنظر، وكذا تظهر على جانبيه ترصيعات نمطيّة ذات أشكال شبه هندسية وغيرها، وكذا شارات الوقف بين الآيات القرآنية[9].

ولعل أكثر ما يميّز ترصيع المصاحف المملوكية هو التماثل في شكل إطار الصفحتين الأوليين في المصحف، وكذا في تزيين الصفحات الداخلية الأخرى.

والصفحتان الأوليان تحويان تزيينا ذا أشكال هندسية تغطي معظم مساحة الصفحة، وتنتج مستطيلا مقسما إلى ثلاثة أقسام.

والآيات القرآنية مكتوبة بالخط الكوفي المذهب، مع تركيبة هندسية في المربع الرئيس المركزي للنص، ولعل هذا المربع شاهد على براعة فناني النسخ المماليك في تصميم التراكيب الجميلة، وعلى ذوقهم الفني الرائع الذي ما انفك ينشئ أشكالا متنوعة متعددة[10].

ويطالعنا في بداية المصحف، وبالتحديد في الصفحتين الأوليين تقسيم إلى ثلاثة أقسام: النص المكتوب في المربع الرئيسي للصفحة، تحيط به من الأعلى والأسفل لوحات كتبت فيها أسماء السور وأرقام أجزائها.

وهذا التقسيم يروق للعين تاركًا انطباعًا تناسقيًا عجيبًا بين كل من عملية النسخ وعملية التزيين[11].

والمصاحف المملوكية العائدة إلى النصف الثاني للقرن الرابع عشر تبدو في حجم كبير، بحيث تحتاج إلى كراسٍ خاصة توضع فوقها حتى يمكن قراءتها. كل كرسي كهذا كان من الضخامة بحيث استطاع حمل المصحف، ويكون مصنوعًا من الخشب ومصبوغًا بشيءٍ من العاج.

وكذلك تشهد لنا المصاحف بإنتاج مصاحف ضخمة يصل ارتفاع بعضها إلى متر واحد، وهذه الأحجام تعد أحد المميزات الهامة للذوق المملوكي الفني إبان القرن الرابع عشر الميلادي[12].

2. الفترة البرجية (1382-1517) :

استمر خلال هذه الفترة إنتاج مخطوطات قرآنية ضمن مصاحف كبيرة الحجم، ومصاحف صغيرة وذات ثلاثين مجلدًا، وكل هذه المصاحف سارت في أعقاب المصاحف القديمة التي أنتجت في القرن

[9] Esin Atil, Renaissance. P; 16.
[10] Ibid.
[11] P. Uaraus, Islamic paintings, pp:43-49.
[12] Ibid, p;27-30.

الرابع عشر، وتأثرت بها كثيراً من حيث التصميم وتقنيات التزيين[13].

ولقد عرف السلطان برقوق (1382-1399م) مؤسس النظام السياسي المملوكي الجديد، بتبرعه بعدة مصاحف للوقف المملوكي الذي كان يحمل اسمه[14].

أما ابنه "فرج" فقد أنتج ثلاثين مجلدا من القرآن، كل منها يشكل جزءاً من أجزائه الثلاثين.

وكانت الغالبية الساحقة من المصاحف العائدة إلى القرن الخامس عشر مخطوطات بأحجام هائلة، كما كان قسم لا بأس به منها مقسماً على ثلاثين مجلداً في أحجام صغيرة[15].

ويظهر تطور معين خلال القرن الخامس عشر على أحجام المصاحف، حيث تبدو أصغر حجماً مما كان قبل ذلك في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، كما أن التصميم للصفحتين الأوليين تغير هو الآخر. وحيث تظهر بوضوح عناصر "نجمية" ضمن ترصيع فاخر، إضافة إلى كتابة أسماء السور بالخط الكوفي، والآيات الشريفة بخط النسخ، بعد أن كان الخط المحقّق هو السائد في مصاحف القرن الرابع عشر[16].

آخر الأساتذة المماليك الكبار الذين تركوا بصماتهم واضحة على مصاحف القرن الخامس عشر كان السلطان قايدبيه (1468-1496) الذي أبدى اهتمامه بالمصاحف. ويدل أحد المصاحف الذي يعود نسخه إلى عصره على علوّ شأن الخطاط ومهارته، حيث استخدم أربعة خطوط مختلفة في نسخ القرآن: الثلث، النسخ، النسخي والرقعة. وقد استعمل الحبر الملون، في خطوط ذات أحجام مختلفة[17].

- يتبع –

BIBLIOGRAPHY

1. Esin Atil, **Renaissance of Islam**, Washington, D.C, 1981.
2. Ettinghausen & Grabar, **The Art And Arch. of Islam**, 1987.
3. J.D. Haldane, “Decorative Qurain Bindings”, **Apollo**, 116, 1982.
4. Kuehnel Ernst, **Islamic Arts**, London, 1963.
5. J. Du Ry, **Art of Islam**, Germany, 1970.
6. P. Uaraus, **Islamic paintings**, pp:43-49.

[13] Ettinghausen & Grabar, The Art and Archeology of Islam. P;333.

[14] Esin Atil, Renaissance of Islam, p26-27.

[15] Ibid.

[16] Kuehnel. Ernst, Islamic Art, London, 1963.

[17] J.D. Haldane, “Decorative Quran Bindings”, Apollo.